# اعترافات سجين

للكاتب الفرنسي فرنسوا كوبيه

بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي

لم يبق بيني وبين الحرية إلا أن تشرق عليّ شمس الغد فتكون خاتمة هذه الأشهر الستة التي حكم عليّ بأن أقضيها حبيساً في هذا السجن جزاء اختلاسي ألفي فرنك من صندوق رئيسي . فقضيتها فيه أذوق العذاب الأليم ، تكفيراً عن ذنبي الذي أذنبت ...

ولن تحين الساعة الثامنة من يوم غد حتى يدخل عليّ الحارس الموكل بي حاملاً إليّ ثيابي التي أخذت مني يوم أدخلت السجن ، وأبدلت بها هذا الثوب الكالح البغيض ... لقد كانت جديدة نظيفة وسأعود إذا لبستها إلى ذلك المظهر الأنيق فلا يفرق الناظر بيني وبين غيري من شباب البلد .. وسأسرع إلى كاتب السجن فأسأله محو اسمي من سجله ، ثم أعدو إلى مرجريت فأراها في عربتها تنتظرني على باب السجن كما وعدتني ... فيا فرحتاه .. سأسترجع حريتي كاملة غير منقوصة !

أجل . سأكون حراً ، وسأعود سعيداً . لأن مرجريت التي من أجلها أجرمت جريمتي وسرقت ، لا تزال تحبني ، وقد كتبت إليّ بالأمس تحلف على ذلك . وإذن فسنرجع كما كنا زوجين وفيين سعيدين ولن نذكر أيام المحنة ولا نعود إليها . لأن المرء يستطيع أن يدفن ماضيه في أرجاء باريس الواسعة التي يضيع فيها كل شيء ولا سيما إذا كان مثلي شاباً متوثباً طموحاً عالي الهمة موفور النشاط ، وكان حسن الهيئة ، ذا ميل إلى التجارة ولقد عزم رئيسي قبل محنتي أن يجعل مني شريكاً له . وكانت تحدثني نفسي بأن شاباً مثلي له تلك المواهب يستطيع أن ينال منزلة في الناس . فأستشعر الشجاعة ، وأحس بالرغبة في مجالدة الحياة ، واستسهال الصعب ، وحمل المكاره والمشاق بصبر وثبات . كصبر ( حصان العجلة .. ) لأحصل قوتي وقوت مرجريت ... ولكن مالي ولهذا ؟ ولماذا أفكر فيه ؟ لأدع الأمور تجري في أعنتها فلكل شيء أوان ، وخير لي ألاّ أفكر في غد . فإن غداً لي وأنا مطمئن إلى هنائه وطيبه ، وما أجمل الساعة التي أغادر فيها السجن ، فأقف على الباب أتلفت فيقع بصري على وجه مرجريت الجميل ، متوارياً في ظل العربة يتراءى من خلال النقاب شاحباً من فرط التهيج والاضطراب . فأدفع للسائق مائة قرش وألقي إليه بعنواني ، وآمره أن يُغذّ السير إغذاذاً ، وأقفز إلى العربة فآخذ مكاني فيها ، وتهوي الفتاة المسكينة بجسمها الغضّ على صدري باكية منتحبة ، وما أعذبها قبلة أطبعها على جبينها المشرق !

سنعود إلى عشّنا في غرفتنا العليا بشارع « مدام » تلك الغرفة التي تُرى منها حديقة

« اللكسمبورغ » بكاملها . ألا ما أجمل أيامنا هذه أيام سبتمبر الأضحيانة ، ذات السماء الصافية والشمس المشرقة . لقد ارتدت الأشجار دون ريب حُلاها الخضر الزاهية ، وتفتحت أزاهيرها الفاتنة . يا لجمال الطبيعة ! سنجلس بالقرب من النافذة ، وسنرسم هذا المنظر الساحر ، وستغمر الشمس غرفتنا بأشعتها الذهبية العذبة مداعبةً الستائر البيضاء ، نافذةً في الأواني البلورية تاركة فيها لألاء وبريقاً . ما أهنأه طعاماً نتناوله فرحين مسرورين ، تأبى أبصارنا أن تكفّ عن تبادل النظرات في سكون وصمت ، وفي حنو ودلال . ستأخذ مرجريت مكانها إلى جانبي بعد تناول القهوة على عادتها فيما مضى واضعة ذراعيها البضتين على منكبي ، ملقيةً بذقنها الجميلة فوقهما وهي تنعم النظر في وجهي

سوف أنتشي من عبيرها المطر ، وشعورها الشقراء ، تدغدغ شفتيّ ، ثم أغلق مصراعي النافذة مسرعاً وأسدل الستائر وأوقد الشموع ، وأنزع ثيابي وأنتظرها مرتعداً مرتجفاً مرتفقاً مخدتي . ولا تسل عن فؤادي الخافق والغبطة التي تملك عليّ مشاعري حين أبصر عنقها العاجيّ ومنكبيها اللذين يبرزان من خلال قميصها الحريريّ وابتسامتها الساحرة المغرية

يا لله ! سأحظى غداً بكل ذلك ، بعد هاته الأشهر الستة التي قضيتها في العزلة المضنية والوحدة القاتلة . سأحظى غداً بكل ذلك . يا لله ما أعذب الحرية وما أحلى السعادة ، وما أهنأ الحب ! . . .

ولكن . . . إن كل ذلك لن يكون . . . سأنتحر الآن بعد أن أنطق هذه الوريقات بما يوضح حاجتي الملحّة إلى الموت . أوه ! هذا الحارس الذي باعني ـ خلافاً للقانون ـ شمعةً أسطّر على نورها هاته الكلمات ، سيدخل عليّ غداً ليخرجني إلى النور والحياة ، فيذهل عند ما يراني معلّقاً بإحدى حلْقات النافذة بارداً متشنجاً ، كالح الوجه مندلع اللسان ، وسيفرّ فزعاً . . . لكل شيء حينه ، فلأنتظر حتى منتصف الليل

لأفكرْ ولأمعنْ في التفكير ، ولأحاولْ أن أتبيّنَ المشاعر التي تهيجني :

لِزامٌ عليّ أن أعترف بادئ بدء أنني لا أحس أيّ ندم على عمل السوء الذي قمت به . لقد أقدمتُ على خيانة دنيئة سافلة ، إذ سرقت رجلاً أحسن معاملتي ، ووثق بي وكافأني بنبل وشهامة واهتمّ بمستقبلي ، وبلغ من احترامه لي أنه عزم على أن يجعل مني شريكاً له في أعماله ، ولكني ويا للأسف لم أكن أهلاً لتلك الثقة ، ولم أثبت بعد ذلك ندمي ، أفبرهن عليه الآن ؟ أما أني لو أحسست مرة أخرى بيد مرجريت ترتجف في يدي حيال دكان (الجوهري) ولو رأيتُ مقلتيها الفياضتين بالآمال وهي ترنو إلى سوار دقيق براق مزيّن بالماس والذهب ، لطوّعت لي نفسي سرقة مئة قرش لأبتاع لها السوار . أسافل أنا أم معتوه ؟ لا أدري ولكني أحدهما من غير شك . آه من هذه المرأة . . . تُرى كيف قدّر لي أن أقع في شرك غرامها سريعاً ومن النظرة الأولى ؟

لا أزال أذكر ذلك كأنه حدث الآن . طلب إليّ اثنان من أصدقائي أن أرافقهما إلى المرقص العام الذي يجاور « مونمارتر » فرفضتُ طلبهما ، إذ أني كنت لقساً وكنت عازماً على النوم مبكراً ، ولكنني اضطررت أمام إصرارهما أن أعدل عن رفضي وتبعتهما

عزفت الأركسترا رقصة البولكا ، وكانت الأنغام شعبية يصدرها ناى مطرب ، وكانت تقفز فى ذلك الفضاء الرحب بضعة أزواج من رجال ونساء ، وكان الجمع الحاشد يدور بلا انقطاع بفتور وكسل تحت أوراق الأشجار المضاءة . ولم يكد يستقر بنا المقام حتى رأينا امرأتين تدنوان منا وتحفّان لاستقبالنا . أما الكبرى فسمراء محفّفة[1] الوجه — يبدو أنها خادمة فى أحد المطاعم الليلية — يعرفها أحد صاحبىّ وتعرفه ، راحت تطلب منا بكثير من القحة أن نقدّم لها ثمن شراب تتناوله . وأما الصغرى فشقراء ، وقد كان موضعى بجانبها حول النضد ، وكانت معتزّة بطلعتها البهية ووجهها المشرق الجميل وقوامها الرشيق . وكان يبدو عليها قليل من الخجل . ولاحظت بسهولة أنها لم تتعلم الرقص إلا منذ زمن قريب . لم يكن عليها شىء من الجواهر وكل لباسها ثوب بسيط متواضع أسود اللون ، ثوب فتاة مهذبة . أما قبعتها فقد كانت مصنوعة من اللّباد تعلوها ريشة وردية ، وكانت هيئة الفتاة تغرى أول متطلع إليها أن يقول لها برغبة وشوق : « أتتفضل الآنسة بقبول تناول العشاء معى ؟ » ولقد كانت قبعتها هذه كلَوْحة تسير أو علم يرفرف

جلسنا نتجاذب أطراف الحديث . كان صوت الفتاة عذباً كعينيها ، ولم تكن تعرف معنى للصلف والقحة ، ولقد حياها أحد صاحبىّ تحية فظّة فلم يك جوابها إلا ابتسامة حائرة يتجاذبها اللطف والنفور ..

لقد كان مرآها يستدعى الشفقة والرحمة حقاً ، وقد أيقظ جمالها خيالى فشبهتها — رغم أنى لم أكن شاعراً — بانعكاس نور كوكب درىّ فى غدير نقىّ صاف ، وكان فى القُبلة الأولى التى سمحت لى بها عند صعودنا إلى العربة وانصرافنا من المرقص كثير من العطف والرحمة والحنان

لله ما أطربها وأبهجها ليلة قضيتها إلى جانبها ! لا أزال أحس حتى هذه اللحظة بحرارة دموعها المنهمرة على منكبى التى كانت تذرفها وهى تقص علىّ تاريخ طفولتها متشردة على أرصفة باريس ، وتاريخ شبابها البائس وسقوطها المؤلم فى حمأة الرذيلة . لقد دفعتنى حالتها المحزنة تلك إلى أن أسارع لإنقاذها ، وغدت بعد تلك الليلة تعيش معى بشرف واستقامة

لقد كان عملى ذاك حُمقاً بل جنوناً ، إذ لم يكن لدىّ من المال إلا مرتبى الذى أتناوله من صندوق « سان جرمان الصغير » فلو كانت مرجريت تعرف معنى التوفير والاقتصاد شأن كل الخادمات لاستطعنا أن نعيش عيشة راضية ، ولكنها لم تكن كذلك وا أسفاه . كانت بطبعها واهنة الشعور ، نشيطة الجسم ، ولم يكن سقوطها الأخلاقى ناجماً عن ميل طبيعى فيها ، بل كان الدافع إليه ضعفها روحاً وجسداً . وما بالك بفتاة طائشة كسول متخاذلة لا تنهض من سريرها قبل الظهر ، تقضى أكثر أوقاتها فى مطالعة الروايات والقصص ، تصبر على تناول ( السَّلْطة ) أياماً ثمانية علّها تقتصد من ذلك بعض المال الذى تستطيع أن تشترى به لنفسها زوجاً من الجوارب الحريرية

غمرت دارى فوضى شاملة : عند ما كنت أعود مساء من عملى ، كنت أرى مرجريت منهمكة فى تزينها الصباحى تجمل وجهها دون أن تفكر فى طعام أو شراب ، فأضطر إلى أن أكلف الخادم بشراء

(١) كناية عما يدعى بالفرنسية Maquillée

شيء من اللحم . وما حاولت مرة أن أوقظ صاحبتي وأعنفها على إهمالها ، إلا وكانت تجيبني غير غاضبة بقولها : أنا أعلم يقيناً أنني لست تلك المرأة التي تليق بك، ولكن ماذا تود أن أعمل؟ اهجرني إن شئت ولن يكون لي حق الشكوى

لم أكن أدري بم أجيب ، ولقد كدت أعتقد أنها لا تهتم بي ، وأنني لم أستطع أن أحملها على حبي

أأهجرها ؟ كنت أفكر في ذلك بادئ الأمر ، ولكني عند تصور عواقب هجرانها كنت أرتعد من الهول : ستعود عقب هجري إياها ، وفي مساء اليوم نفسه ، إلى المرقص الرهيب الذي انتشلتها منه ، وسيمر بها أحد العابرين فتروق في عينه فيقودها إلى داره بعد أن يدس في يدها قطعة أو قطعتين من ذوات العشرين فرنكا ... أواه ! إن رأسي لم يكن باستطاعته أن ينوء بتصورات كهذه ... أأهجرها ؟ كانت تحدثني نفسي قائلة : إنك ستستيقظ صباحاً فلا تحس دفء جسمها بقربك ، فلا أكاد أسمع هذا منها حتى يغمى علي من الخوف والحزن .

ولقد أصبحت حاجتي إلى تلك المرأة — بعد أسابيع قليلة — قوية شديدة ، وكثر ميلي إليها فلم أعد أستطيع الانفكاك عنها بحال . كنت أحبها ... وأحبها ... لا بل إني كنت مجنوناً بحبها

ألم تكن تبيت قبل أن أضمها إلى في غرفة قذرة في فندق صغير ؟ ألم يكن كل ما تملكه ثوبها البسيط الذي كانت ترتديه وتلك القبعة ذات الريشة الوردية التي انفردت بها في المراقص العامة ؟ أما والله لقد بذلت جهد طاقتي لأقدم إليها ثياباً تضفي عليها الحشمة والوقار ولأجهزها بكل ما تحتاجه وتطلبه ، ويعلم الله أنني أنفقت في هذه السبيل كل ما أملك من مال وعقار بل إني استدنت فوق ذلك أيضاً ... كانت لا تعرف النظام ، ولا تدري ما هي العناية . لقد بذلت كل ما بوسعي لأرضيها وأسعدها ، أتراها رضيت ؟ كنت أخشى دائماً أن تملني وأن يحملها الضجر على هجري

لقد اضطررت إلى استدانة أموال وافرة من جلة أصحابي وأصدقائي لكي أرسلها إلى عملائي الذين راحوا يشكون من تأخري وإهمالي حقوقهم ... وانتابتني لذلك أشجان بالغة لم أفض بشيء منها إلى مرجريت

ترى أأفادني ذلك كله ؟ لقد قالت لي مرة بصوتها العذب الهادئ — وأنا أعرف تماماً ماذا تعني — : « ماذا تود أن أعمل ؟ خير لنا أن نفترق لغير لقاء » فعقدت النية في نفسي آنئذ ألا أبالي بأية نكبة تحل بي وأن أتظاهر بأني لا أبالي أقوالها ، وأن أسعى لاستبقائها بكل وسيلة ممكنة ، وقد بدا لي المستقبل مربداً مخيفاً

رأيت الرجال البائسين يشغلون أنفسهم ببعض الملاهي ، وبدا لي هذا واضحاً في موظفي « سان جرمان الصغير » الذين كانوا يفيضون في الحديث أمامي عن مكاسبهم وخساراتهم في سباق الخيل الذي كانوا يشتركون فيه بحماس . وفي يوم من تلك الأيام التي كانت سوق المراهنات فيها رائجة ورابحة ، أعلن رئيس معامل الحرير بلهجة الواثق أن لديه معلومات هامة مستقاة من ( جوكي ) كان معروفاً بين زملائه سماسرة السباق وسواس الجياد بلقب « البوق الجيد » كان يدعى هذا البوق أن « جران دوسيل » — وهو جواد غير مشهور — سينال جائزة السبق الأولى وأن الذين يراهنون عليه سيربحون عشرة أمثال المال

الذى يدفعونه . ولقد رأيت أحد تجار الثياب الصوفية باع أشواط الجواد « ست دوبيك » مع أنه كان الجواد السابق فى المضمار ، ورأيت آخر لا يريد أن يرجع عن رأيه فى الجواد « جران دوسيل » وراح يدبر بإشارات مساومة دنيئة فى الاصطبل الذى اجتمعت فيه الخيول الشهيرة المروضة وكان يريد أن يجعل النصر حليف هذا الجواد

فتملكتنى مشاعر رهيبة أمام هذه المشاهد المغرية واضطرب جسمى وحدثت نفسى قائلاً :

— لو عادت لى الآن قطعة الخمسمائة فرنك التى كانت فى خزانتى يوم عرفت مرجريت ، لخاطرت بها فى هذا السباق بلا تردد ولا إحجام . عشرة أمثال هذا المبلغ ! خمسة آلاف فرنك ! يا للسعادة ! سأفى كل ديونى وسأقضى حياة رغدة هنيئة . ستكون لى مرجريت بلا منازع أشهراً طويلة ...

ولكن ... لم أكن أملك ساعتئذ إلا قطعتين من ذوات العشرين فرنكاً ، واضطررت إلى طرد هذا الحلم الذى لن يتحقق إلا فى عالم الخيال وهززت كتفى ساخراً

كنت قد وعدت مرجريت ، رغم فقرى ، أن أذهب بها فى ذلك المساء إلى « فولى بيرجير » حيث يرى كثير من الأقزام الغرباء الذين يبعثون فى النفس الخوف والرهبة ، وذهبنا سائرين على أقدامنا ، يدى فى يدها ، كى نقتصد أجرة عربة ومررنا تحت شرفات « باليه رويال » وكانت مرجريت تقف مراراً — شأن كل امرأة — حيال واجهات الصاغة وتشير بيدها إلى سوار دقيق مزين بألماس قائلة :

— خبرنى ، أى ثمن تقدر لهذا السوار الصغير ؟

فكنت أجيبها قائلاً .

— ماذا ؟ ماذا ؟ إن ثمنه لا يقل عن ألف فرنك

فلا تكاد تسمع هذا الجواب حتى تبتعد عن الواجهة ببطء ، وفى عينيها نظرة أسف عميقة وتقول :

— هيا بنا ... ما أجمل هذه الألاعيب ، إنها من نصيب سوانا

وفى تلك اللحظة كانت تعاود ذهنى تفاصيل مساومة الاصطبل التى قصها علىّ صديقى وكنت أثق بنجاح جران دوسيل ثقة مطلقة ، وكنت أشعر فى أعماق فؤادى بدافع شيطانى قوى يغريني بأخذ ألفى فرنك من الصندوق الذى كنت موكلاً به أشترى منهما السوار لمرجريت ، وأتم مغامرتى بالمال الباقى ، وكنت أبرر هذه السرقة ، بأن أقول فى نفسي : إننى إلا أيام قلائل أستطيع بعدها أن أرد بكل أمانة المبلغ الذى سرقته إذا ما ربحت فى مغامرتى ، ورأيتنى إذ ذاك متخلصاً من جميع همومى ومتاعبى ، مالئاً جيوبى بالذهب الوهاج ، أتناول طعام الغداء الشهى مع صاحبتى جالساً بجانبها فى ظل حمام بالمسرح ، عابثاً بين حين وآخر بشعرها المتدلى على عنقها

تخيلت ذلك كله فى لحظة واحدة ، قبل أن تحول مرجريت نظراتها عن الواجهة الساطعة .

وكنت أسحبها ضاغطاً على يدها ، مسرع الخطى ، يخفق فؤادى خفقاناً شديداً ، ثم أشعر فجاءة برأسى يضرب ضربات أليمة موجعة ، ونفسى تحدثنى قائلة : « أما إذا لم تربح ؟! . »

كنت أرنو إلى رفيقتى من جانب عينى ، ولحسن حظى كنت أراها ملتفتة برأسها إلى الجهة الأخرى ، جهة المخازن لم ترنى ، وقد رأيت فى مرآة أحد المخازن وجه مجنون يشبه وجهى ، ولكنى كنت أملك زمام نفسي باذلاً جهوداً عظيمة .

وبعد ، فماذا تراه يحدث ؟ ماذا يحدث إذا أنا لم أربح ؟ سأجلس بلا ريب بحنى الظهر خافض الرأس على كرسي الاتهام وسأقاسى عذاب السجن وبلاءه إلى جانب المجرمين . لا يحدث شيء فى هذه الدنيا دون مغامرة ومخاطرة ، وإذا كان حظى الخيبة والفشل بعد ذلك فسألقى على هذه المرأة التى جعلت منى خادماً لها ، والتى لم أستطع أن أوقظ فؤادها البارد المتجمد ، سألقى عليها درساً يشعرها بحبى العظيم ، عساها تشعر أخيراً فى أعماق فؤادها ببعض الحب لى فتتألم بدورها — مهما كان قاسياً — عند ما تعلم أننى ارتكبت جريمة السرقة من أجلها .

ليس بوسعى الآن أن أصور العاصفة النفسية الخلقية الجامحة التى سودت وشوهت صفحة كرامتى ، وليس بوسعى الآن أن أسرد حديث السرقة الشائنة التى ارتكبتها ، وآلامى النفسية المضنية أمام قائمة المراهنات عند ما كانت الخيول تعدو وهى تضرب ضرباً مؤلما مبرحاً ، وصهيل الجواد « ست دوبيك » الذى كاد يسبق (جران دوسيل) فى اللحظة الأخيرة لولا أن مدّ الأخير عنقه فأحرز قصب السبق بهذه الحركة الأخيرة !

لقد اكتشفت جريمتى ، وأوقفت ، وحوكمت وأدنت وكان مصيرى هذا السجن الذى تحملت فيه ألوان العذاب والبلاء والذل والهوان ، والذى لن أخرج منه إلا ميتاً .

أواه ! لشد ما شكوت من الآلام الرهيبة الهائلة ، آلام لم تحملها إلىّ آلات التعذيب المفزعة ، ولم يسببها حرمانى الحرية ، ولا وجودى إلى جانب المشردين والمجرمين وقطاعى الطرق ؛ كلا ليست من أجل ذلك ، ولكنها آلام أثارتها فى فؤادى نيران الغيرة الرهيبة القاتلة .

لم أكن قد أحسست من قبل هذا الشعور الرهيب ، ولم يبد من مرجريت فى تلك الأشهر الخمسة التى عشناها معاً ما يوقظه فى نفسي . لقد كانت مثلوجة الفؤاد ، ملازمة للدار طول النهار — ولدى أدلة على ما أقول — وفى المساء عند ما كنا نخرج معاً لم أكن أرى فى عينيها تلك النظرة التى تلقى بها كل امرأة — حتى أشرف النساء — ولو كانت رفقة زوجها ، إلى أول مار ينظر إليها نظرة إعجاب ... إن مرجريت لم تكن خليعة قط .

وقع ما تنبأت به ، إذ أن مرجريت قد حز فى أعماق نفسها إجرامى ورأت فيه دليلاً على حبي لها ، وأشهد أننى رأيتها فى جلسة المحاكمة تبكى بدموع صادقة مخلصة ملقية تبعة سقوطى على عاتقها ، ومذ سمح لها بزيارتى فى السجن — وكانت تدعى أنها أختى — بدا لى وجهها من خلال قضبان السجن شاحباً شحوب الموت دالاً على أنها تعانى حزناً عميقاً . لقد كانت تحبنى ، وكنت واثقاً من ذلك كل الوثوق

لا أزال أذكر المقابلة الأولى : كنا نتبادل النظرات من خلال القضبان الحديدية فى حزن وشجن وأذكر أنى سألتها قائلاً :

— وأخيراً ... أراك أصبحت تشعرين نحوى بقليل من الحب، أليس كذلك ؟

— لقد زاد حبي لك ، وأحسبك تدرك ذلك بسهولة

— ولكن فؤادك كان قاسياً قبل الآن

— إن عملك الأخير قد شجانى وخالط الحب من جرائه سويداء قلبى ، ولم أكن أعتقد قبل ذلك أنك تكن لى مثل هذا الحب الجامح القوى ... إختبر حبي لك إن شئت

— ليس لدى إلا شيء واحد يدفعني إلى الاعتقاد بحبك لي واقتناعي به

— قل لي ما هو ؟

— هو أن تنتظري خلاصي وتبقي مخلصة لي

— أعدك بهذا ، وأقسم عليه إن شئت

— حسن ، وكيف تودين أن تقضي هذه المدة ؟

— سأعمل !

— تعملين ؟ أنت يا صديقتي تعملين ؟

— ولم لا ؟ لقد تعلمت الخياطة وكيف أبرع بها

وعادت إلى بعد ثمانية أيام وخلعت أمامي قفازيها وأرتني أصابعها التي ثقبتها الإبر ، وخبرتني أنها تعمل في أحد المخازن المختصة ببيع ما تحتاجه المرأة ، وبدأت تربح فرنكين كل يوم ، وغدت بعد أيام قليلة أكثر حذقاً وغدا أجرها ثلاثة فرنكات وابتسمت لي قائلة:

— يمكن أن يعيش الانسان بهذا المال القليل عيش الكفاف ، وسأصبر عليه إذ لا يشغلني ولا يهمني في هذه الحياة ، إلا أمر واحد هو أن تكون يا عزيزي هانئاً ومسروراً

ورأيتها تلفظ كلمة (عزيزي) باضطراب محاولة أن تخلع عليها كل ما لديها من عاطفة ، بعد أن كانت تلفظها ببرودة وبكثير من الابتذال ، وترقرقت عيناها بعد ذلك بالدموع

لم أشكو إذن من حياة السجن وثيابه البالية وطعامه الردىء وزملائي الذين هم سفلة الناس وليالي المسهدة المضنية ؟ لم أشكو من ذلك كله ما دامت مرجريت تحبني ، وما دامت تحصل قوتها بنفسها لتبقى وفية لي منتظرة خلاصي ؟ هل كنت أتصور هذا من قبل ؟ آه ما أتعسني وأشقاني ! إنني ارتكبت جريمة السرقة من أجل امرأة ، وسأكفر عن خطيئتي هذه ، وسيكون عزائي الأوحد أن أرتمي بين ذراعي هذه المرأة التي انقلبت خلقاً آخر ، والتي بعثت امرأة جديدة بفضل الحب وبفضل العمل والتي ستكون أكبر رادع لي عن السقوط الخلقي كرة أخرى . لقد أحسست بالشجاعة تغمر فؤادي وسأحتمل هنا كل العذاب الذي أستحقه دون أن أبدي تذمراً أو شكوى . ولقد كنت في أشد الساعات هولاً ، هنا في السجن لا أفكر إلا في مرجريت وكان الأمل الوضاح الذي يبدو لي بين طيات المستقبل الباسم ، ينعشني ويعيد لي نشاطي وعزمي ، كأنني تناولت شراباً منعشاً ، وكان زملائي المخيفون يسائلونني أحياناً قائلين :

— ما لنا نراك سعيداً ؟ وفيم ابتسامك الدائم ؟

فكنت لا أحير جواباً

أنا السجين البائس ، أنا الذي كان الحراس يزأرون في وجهه قائلين : من هنا — كما يقال للكلاب — أنا السجين البائس عشت ساعات طويلة كانت تغمر السعادة فيها جوانب نفسي وكان يفيض قلبي هناءة وسروراً . ولقد دامت فترة سروري شهرين متتابعين كانت مرجريت في أثنائهما تعاود زيارتي بانتظام ودقة كل أسبوع ، وكنت أتطلع في كل زيارة — وقلبي مفعم بالشفقة — إلى مقلتيها اللتين أضناهما السهر ، وإلى وجنتيها اللتين أشحبهما البؤس ، وإلى أصابعها الذاوية التي براها العمل ، وإلى ثوبها الذي كان يفقد لونه على مر الأيام

ثم جاءتني على حين غرة ، مرتدية ثوباً جديداً فكان ذلك مثيراً لارتيابي ، ولحظت وجهي تتعاوره الشكوك فألقت إليّ نظرة حادة وقالت باسمة :

— أراك تنظر إلى هذا الثوب الجديد ،

لقد وهبتنيه صديقتي كلوتيد التي كانت معي في المرة الأولى التي لقيتك فيها ، أغرم بها شاب حتى درجة الجنون وراح يعمل من أجل إرضائها مالا يستطيعه إلا المجانين. ولما رأت ثيابي الزرية الرثة أهدت إلي هذا الثوب الذي لم تلبسه إلا قليلاً ، ولم أره بحاجة إلى الإصلاح فهو جديد كما ترى

سمعت هذا الكلام فلم أستطع أن أصدقه ، ذلك لأن مرجريت لم تحدثني قط منذ عرفتني عن هذه المرأة التي دعتها كلوتيد وادعت أنها صديقتها ، وقبل أن أعرف مرجريت كانت المرأتان تقطنان أحد الفنادق متجاورتين وكانتا تذهبان معاً إلى المراقص العامة ... هذا هو كل شيء ، وكنت أذكر جيداً أن كلوتيد هذه فتاة قد ذوى شبابها وزال رواؤها وانطفأ جمالها وسقطت في مهاوي البؤس والفاقة ، وكان أقصى عمل تستطيع أن تقوم به هو أن تنوى أحد الشاربين الممثلين بفضل الأصبغة التي تستر وجهها ، ولن تستطيع امرأة مثلها أن تجد حبيباً ذا غنى لتتكرم على صديقتها بمثل هذا الثوب ... وزادني اعتقاداً بكذب مرجريت ارتجاف نظراتها واضطرابها ، واهتزاز جفونها ، ولم تكن عيناها في الحقيقة إلا عيني كاذبة !

وكدت أصارحها بكل مافكرت فيه وماحدثتني نفسي به ، وكدت أميل عليها بالعتاب ، لولا أنني خشيت أن تهجرني إلى الأبد ، فسكت على مضض وأخفيت ما في نفسي ، وراحت هي تتابع حديثها العاطفي قائلة لي : إن أجرها قد بلغ ثلاثة فرنكات ونصفاً ، وأربعة فرنكات أحياناً في اليوم ، وأن لديها كثيراً من العمل حتى إنها لا تجد الوقت الكافي للقيام به ، وإنها بدأت تفتش عن مساعدة لها ، وراحت ترسل الأكاذيب تباعاً دون خوف أو خجل.

وثارت في نفسي عاصفة قوية من الألم والغضب ، كادت تنفجر لولا أنني غالبتها ووجدت القوة على إخمادها وبقيت هادئاً حتى النهاية ، ولم أكن أجيب إلا ببضع كلمات تافهة على ثرثرتها التي لا تنتهي ، وأعتقد أنها عللت صمتي بحالتي المؤسفة التعسة وتركتني مرحة واثقة أنها استطاعت خداعي

وظلت مرجريت تخدعني . وبينما كنت أتحمل من أجلها عقاب السارقين كانت قد اتخذت ـ أواه ماذا أقول ـ اتخذت حبيباً ربما استسلمت إليه في الليل لقاء هبات تافهة . لئن رأيتها ترتدي الآن ثوباً جديداً فأنا واثق من أني سأرى في يديها ، في المرة القادمة ، قفازاً جديداً ، وعلى رأسها قبعة جديدة ، وفي جعبتها أكاذيب جديدة تهيئني لمفاجآت جديدة . ويا ليتها جاءتني بثيابها الرثة كاتمة عني حديث ثوبها الجديد ، ولكن ما إخالها استطاعت أن تظهر في الشارع بتلك الثياب ، وفضلت أن تخترع كل هذه الأكاذيب الشائنة ، وما إخالها إلا هازئة كتفيها قائلة في نفسها : « وماذا يهمني بالله إذا كان لا يصدقني ؟ » تباً لها من فتاة خائنة فاجرة ! أمن أجلها ارتكبت جريمة السرقة ؟ أمن أجلها دنست شرفي وشوهت سمعتي ؟ ألا تعساً لي

ولكن . . كنت أسائل نفسي قائلاً : لماذا كانت تزورني ما دامت تخونني وتبغضني ؟ ولكني كنت أحس الجواب في نفسي : إن الشفقة عليّ كانت تدفعها لزيارتي ، كما يشفق الإنسان على خادم المستشفى فيحمل إليه قليلاً من البرتقال . أواه ! يا للعار ! أكانت تشفق عليّ إذن ؟

قضيت ثمانية أيام رهيبة وأنا أدير هذه الخواطر

فى رأسى بلا انقطاع ثم تملكنى الذعر وقلت : هل تأتى لتزورنى فى يوم الزيارة القادم ؟ وتذكرت فى غمرة اليأس القاتل كم كانت مرجريت عزيزة علىّ حبيبة إلىّ ، وأقسمت أن أخفى عنها غيرتى ولا أبدى لها ارتيابى وألمى وقد وفيت بهذا القسم

عادت إلىّ بقبعة ربيعية جديدة ـ كما قدّرت ـ وكلت بها هيئتها وكان الاطمئنان والسرور يشعان من عينيها وبشرتها غضة . أكانت تعيش هذه المرأة فى بؤس ولا تحصل على قوتها إلا بخياطة رقع طول النهار والليل ؟

ورغم هذا كله ظللتُ شجاعاً ـ أو ساذجاً على الأصح ـ إذ كان يخيل إلى أنها تصيب بتظاهرها بالسرور وبادّعائها أنها تستخدم عاملتين مع مائة أكذوبة من هذا النوع ، وتظاهرت بمشاركتها السرور ، ورجوتها بعطف ورِقّة أن تخلع قفازيها وأن تستند بيدها إلى الحاجز الذى يفصلنا لأستطيع لمسها بشفتى ، فأطاعتنى . ولشد ما كانت دهشتى إذ رأيتُ يديها غضتين لا أثر فيهما — ولا فى منتهى أصابعها — لثقب إبرة أو ...

ما هذا ؟ إنى أسمع ساعة السجن ترنّ الحادية عشرة والنصف ، وستفنى قطعة الشمع الباقية لدىّ بعد وقت قصير فلأسرع إذن ولأختصر . إذ لو كان أمامى متسع من الوقت لسرّنى أن أصف هنا القلق الذى انتابنى وغمرنى بالألم والذى يمكن بيانه بهاتين الكلمتين الرهيبتين : سجين غيور ! أجل ، يسرنى وايم الله أن أصف وصفاً دقيقاً الآلام والشجون التى كانت تثيرها مرجريت فىّ فى كل زيارة جديدة ، ولا بد لى من وصف إحداها هنا إذ كانت أروع الزيارات وأقساها وأشدها هولاً :

بينا كنت أنتظر فى ذلك اليوم قدوم صاحبتى كنت أحاول إقناع نفسى بأننى أسأت الظن أكثر مما ينبغى وأنه ليس من المستحيل أن تجمع المرأة عن طريق عملها بعض المال الذى تستطيع أن تبتاع به بضعة أثواب وحلى ، ومكّن هذا الخاطر من نفسى ذكرى عادت إلى : لم تتحل مرجريت أثناء زيارتها لى بالحلى التى قدمتها إليها وقد أصرت يوم المحاكمة على أن تعيد لى السوار الذى اشتريته لها بالمال المسروق ، وبرغم أنها كانت فتاة فقيرة فقد كانت تبغض الحلى المزيفة أشد البغض ، ولم أعرف أنها تحلت بأية زينة حتى أن أذنيها لم تكونا مثقوبتين . وقد هاجت هذه الذكرى شعورى . ثم ذكرت أننى وإن لم أر خاتماً فى أصبعها ، كنت لا أرى أثر العمل ظاهراً فيها ، ومع ذلك فقد حسنت ظنى — وإن كان من الممكن أن تكون قد قبلت حليا ولم تبدها لى — وأحسست فى نفسى ميلاً لحسن الوفادة والمعاملة ، وكنت أريد أن أقنع نفسى بأننى ظلمتها بإساءة ظنى بها

قدمت على عادتها فى الوقت المحدد ، ولم تكد تقع عينى عليها من خلال القضبان الحديدية حتى تبدد ارتيابى وزالت شكوكى ، ولكنها لم تكد تقترب منى حتى رأيت ـ أواه ، يا لسخرية القدر ـ رأيت فى أذنيها ثقبين غضين ! أأصبحت تملك حلياً هذه المرأة التى كانت تبغض الحلى الزائفة ؟ رأيت فى أذنيها جواهر ثمينة بل لآلئ وأظن أنها وضعتها لتحلوَ فى عينى ولتقدّم لى دليلاً على رقّتها ولطفها ، غير عالمة أنه من اللطف أن تخفيها عنى وتعفينى من رؤيتها !

منذ ذلك الحين لم يعد يداخلنى أى ريب فى خيانتها ، وصممت إذ ذاك على الانتحار ، وقد كان

الأحرى بي أن أصمم عليه منذ وقت طويل ، ولكن ما فائدة الكلام ؟ إن الإنسان جبان يخشى الموت .

وبعد ، وبرغم كل ما ذكرت ، أعترف بأنني لا أزال أحب هذه المرأة ، وكنت أتعمد في الليل على فراشي — إن صح أن أدعوه فراشاً — سابحاً في أحلام عذبة لا أرى فيها إلا مرجريت ... أواه ! لقد تعاورني كل لون من ألوان الضعف ، ورحت أفكر في استرجاع مرجريت وغدوت أسخر من نفسي وأهزأ بغيرتي قائلاً : « إن ضميرك حساس ويقظ أكثر مما يجب أن يكون » ، ولكن التفكير في أنها خدعتني وأنها أصبحت ملك رجل — أو رجال — غيري بينما أنا موثق في السجن بسببها ، كان يدفعني إلى الغضب ، بل إلى الجنون .

أجل ، إن من الممكن — كما قلت في بدء اعترافاتي هذه — أن أتناول معها طعام الإفطار صباح غد في غرفتنا الصغيرة إلى جانب النافذة التي تطل على الحديقة الكبرى ذات الأشجار الخضر الزواهي . كم يكون ذلك جميلاً رائعاً ... ولكن ... لو حانت مني التفاتة إلى الموقد ، ووقع بصري على عقب دخينة ( الرجل ) بين الرماد المحترق ، لو قدر لي أن أرى ذلك لتناولت سكينا وأغمدتها في قلبها

ولكن لا ، لا أريد أن أغدو قاتلاً . يكفيني أنني سارق ، وخير لي أن أموت دون أن أحمل لها حقداً أو موجدة وأقنع نفسي أن ما حدث لم يكن منه مفر ، وأنها كانت مخلصة لي ، وأنها مع هذا ربما كانت تحبني قليلاً في اليوم الذي لم تقو ويا للأسف على الوفاء به

وداعاً يا مرجريت ... إنك لا تزالين شريفة في أعماق نفسك ، وإخالك ستذرفين قليلاً من الدمع عند تلاوة هذه الصفحات ، ولكن كل شيء إلى نسيان ، وعند ما يسألك أحد أحبائك الذين تجمعهم بك المصادفة ، عند ما يسألك أن تقصي عليه قصة حياتك لمجرد التسلية ، ستكونين مزهوة كمثيلاتك . ستقفزين من سريرك عارية القدمين لتفتشي عن هذه الأوراق في درج خزانتك الذي تضعين فيه أوراق اللعب ، وعند ما تعودين إلى سريرك ستُقرئين اعترافاتي هذه كل زائر ليلي مزهوّة فخورة بأن شاباً بائساً تعساً انتحر من أجلك وفي سبيلك

أوّاه ... لقد انتصف الليل ، وها هي ذي الساعة تدق اثنتي عشرة ، وها هي ذي ذُبالة الشمعة تحتضر هيا ... لأفتل غطاء السرير ولأربطه بالنافذة ، ولأُحكمْ عقده على عنقي ... لأتشجعْ ولأنتهِ من آلامي ، ولأتخلصْ من شقائي

( دمشق ) ناجي الطنطاوي

ظهر حديثاً

عبث الأقدار

قصة مصرية تاريخية

تأليف

نجيب محفوظ

يطلب من مكتبة الوفد والمكاتب الكبرى